

## ذات الثوب الأرجواني

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

( تنبيه : للكلام كله تخيل ولا أصل أو حقيقة له )

- ٧ -

طلبت من الريف ما لا سبيل إليه في هذه المدينة العظيمة ذات المائر الشائعة ، والبني الرقيقة ، والهواء الحبيس ، والذفوس المروضة على تكلف غير طبايعها . وكان بمض قومي قد سبقوني ؛ فأنبأهم أني لاحق بهم ، وإذا بيرية تردني منهم يقولون فيها : « هات فتنة ملك » فلم أدر ما - أو من - « فتنة » هذه .. أقطعة هي يا ترى ؟ أم فتاة ؟ أم كلبة ؟ أم ماذا ؟ ... وكنت أعبد حقائبي ، ومكتب البرق بيدي مني ، وحدثني نفسي أنهم يعرفون أني لا أعرف « فتنة » . فالأرجح أن يكونوا قد أبرقوا إليها لتتصل بي ، أو لأصحابها إذا كانت حيواناً . وقلت سأسافر على كل حال في الوقت المين . جاءت « فتنة » أم لم تجيء . وأنبئت على الحقيقة أحشر فيها - فإلى قدرة على الترتيب والتنظيم - ما أقدر أن سأحتاج إليه ، وإذا بالبواب يفرع فرعاً مزيجاً لاهمدي به ، ففزعت ومضيت إليه على عجل مخافة أن يكسره الطارق . ودار في نفسي أن هكذا دق « تيمون الأثيني » باب الآخرة حين انحدر إليها بعد أن وافاه حينه الذي كان ينتظره بصبر فارغ من فرط كرهه للناس ، فان أساطير اليونان زعم أن الناس يهبطون بعد موتهم إلى وادي الظلال ، وهناك يحشدون في الفجر ويعدّون وتبقيد أساؤم ثم يركبونهم زورقاً - غير بخاري بالطبع - إلى وادي القنوط حيث يكون الحساب . ومن غرائب هذه الأسطورة أن على كل راكب أو محمول في هذا الزورق أن يؤدي أجرة العبور إلى وادي القنوط . . . وقد ضحكت وأنا أذكر هذا إذ أمشي إلى الباب ، وقلت لنفسي والله أن بيتي لك وادي القنوط بفضل « ذات الثوب الأرجواني » وما أخلقني حين أفتح الباب لهذا الزائر المستعجل أن أرحب به بهذه الآيات القديمة التي نظمها المناسبة شبيهة بهذه :

« داؤنا مغرب أنوار الجباء من رآها لم ير الضوء الطليق  
ما لمن يهوى إليها من نجاء ما لما يضرب فيها من شروق

\*\*\*

وهي ، في الآكوان ، دنيا عاقر كل زخار له فيها ركود  
ضرب السحر عليها ساحر ففى عنوان على عقم الوجود  
ولكن شيئاً - لعله الالهام - صرفني عن هذه التحية  
غير الطيبة ، فقد كان الزائر فتاة أشهد أنها من أجل - إذا لم تكن  
أجل - من رأيت في حياتي ؛ وكانت رشيقة مشوقة ، ووجهها  
وضاح ؛ أما عينها فأعوذ بالله منها ؛ أعني أن البراقع ما اتخذت  
إلا لتقي الناس سحر مثلها

وقالت وهي تنساب كالماء الرقراق : « لست تعرفني بالطبع ..  
ولكني أنا أعرفك »

قلت : « تفضل .. أعني أولاً .. وبعد ذلك يتسع الوقت  
للسؤال والجواب »

قالت : « متى تسافر ؟ »

قلت : « هل تعلمت في إنجلترا .. أو لعل أبالك أنجليزي ؟ »

قالت : « لماذا .. اني سمراء . أو لولني أقرب الى السمرة ..

ثم إنى لا أعرف الأنجليزية .. تعلمت في « الميرده ديه » فقط »

قلت : « هذا أحسن .. على كل حال إنما عنيت أنك تمنين

الى غرضك بلا لف ولا تضييعين الوقت .. سأسافر في الفجر »

قالت : « سأبث إليك إذن بالحقائب الليلة وأجى أما قبيل  
الفجر »

قلت بفرح : « أنت إذن « فتنة » ؟ ؟ لقد صدق الذي سماك »

فقالت وهي تمهض عن الكرسي وتمضي إلى المنضدة وتقلب

ما عليها : « أليس عندك سجاور ؟ . أم أنت لا تدخن ؟ . »

قلت : « إنك صغيرة جداً .. ولكن خذى »

فأخذت سيجارة وانطلقت تدخن وهي ساهمة وأنا أنظر

إليها ولا أقول شيئاً ، فقد خطر لي أني سأشهد فصولاً كثيرة

متعاقبة لهذه الرواية . وإذا بها ترى السيجارة من النافذة وتقول

« إلى الملتقى إذن .. وشكراً لك »

وليس أبنض إلى من أن رى الناس ما أصنع أو يشهدوا

خروجي ودخولي وسفري وإيابي . ولكني أحسب الدنيا كلها

- دنيا شارعتنا على الأقل - قد علمت أني مسافر بالسيارة ،

قالت : « أراهن أنك لن تقبل بعد اليوم أن تحمل في سيارتك فتاة أخرى » ثم التفتت إلى أعمى أنها انحنت قليلاً إلى الأمام وواجهتني وهي تبسم وقالت : « قد تكره أن تسمع مني هذا ولكني شاكرة ... شاكرة جداً .. وقد أتميتك .. لا تقل شيئاً فاني واثقة أني أتميتك . ولكنك كنت حلماً جداً »

نقلت : « كلام فارغ .. قولي شيئاً آخر »

قالت : « لا أدري متى يتاح لي أن أراك مرة أخرى ولهذا عجبت بشكرك في الطريق »

فضطت نفسي بجمهد ، ومع ذلك كانت « إيه ؟ » التي نذت عني كالصيحة فقالت : « نعم فاني مرتبطة بأهلي فاذا رحلوا - كما ينوون أن يفعلوا - إلى الاسكندرية رحلت معهم وإلا بقينا .. وأنا أزجو أن يقفوا فاني أريد أن أتعلّى بـ ... وبـ ... »

فصحت بها : « ماذا تمنين ؟؟ أعمى ما الفائدة من حملك كل هذه المداقة من القاهرة إلى هذه القرية الصحيقة إذا كنت ستختفين غداً ؟؟ »

قالت : « وماذا أصنع ؟. وعلى كل حال كيف يميتك هذا ؟. ماذا يهدمك ؟ »

قالت منالطاً : « لاشيء بالطبع ! لك الحق »

قالت : « لقد كنت أمم بأن أقول لك اكتب إلى إذا شئت ولكني عدلت الآن .. من فضلك انتظر لحظة .. دقيقة واحدة فان جوربى اتسخ جداً وأريد أن أغيره قبل أن ندخل البلدة »

فوقفت وزلت من السيارة وذهبت أتمشى فلما عدت - إجابة لندائها - قالت : « الآن أنا نظيفة وجيلة »

نقلت : « أنت دائماً هكذا »

قالت : « صحيح ؟ » وكنت سادماً فافقدت ذرة من نضارتها ورونتها بمد مائة وثمانين كيلومترا

فقالت : « إن خير ما فيك أنك تمنى ما تقول .. فانا أعرف الآن أني دائماً جيلة .. وأنا أعرف بشير ميمونتك أن ساق جيلتان لانكار .. لقد قلت هذا .. ولكن عيني .. و .. و .. وشمري .. أنا مضطربة .. لم أسمع منك ثناء على عيني وشمري »

نقلت باختصار : « خير ما رأيت »

فابتسمت وقالت : « ثناء وجيز .. وجيز جداً .. ولكنه يكفي للاطمئنان .. »

وأن مى فتاة جميلة ستريفي النجوم في الظهر الأحمر .. واطلمت - أعمى الدنيا الخاصة - على ما في حقيقتي الصغيرة وحفايتها الكثيرة المتفتحة فقد كانت لا تتأثر بأمرنى بأن أغير كل ما رتبته . هذه الحقيفة لا يجوز أن تكون تحت غيرها لأنها من جلد طوى فهي تخشى عليها التلف .. وهذه الكبيرة فيها مادة محتاج إليه في الطريق فيجب أن تكون فوق .. فأقول ولكن الطرية يجب أن تكون فوق فاذا أصنع ؟؟ فتقول هات الطرية معنا في السيارة فأطيع وأحل ما عقلت ، وأعقد ما حلت . ثم يتضح أن فيما ربط خلف السيارة أشياء لا بد منها كل يضع دقائق في الطريق ، فأسال مثل ماذا ؟ فتقول مثل زجاجة الكولونيا الصغيرة وملحقاتها من أدوات الزينة المعروفة التي لا غنى عنها - حتى الفتيات الصغيرات مثل « فتنة » صرن لا يستغنين عن ذلك ، فأعود إلى الحل والمقد وأفتح لها الحفائب - في الطريق من فضلك - ولم تكن الشمس قد طلعت ، ولكنه كان هناك خلق كثير احتشد لتكيدتي ! وقد عنيت بأن أحصى هذا الخلق وإليك البيان :

(١) سائق مركبة « كارو » - سكران على الأرجح

(٢) ستة من عمال الطرق طائدون بمشون صفيين ومعهم الكانس يحملونها كما يحمل الجنود البنادق . وقد وقفوا ينظرون إلينا مسرورين

(٣) قطتان : واحدة على رصيفنا والأخرى على رصيف « ذات الثوب الأرجواني »

(٤) أربعة غلمان كانوا سائرين فلما رأونا واقفهم منظرنا فوقفوا ينظرون ويتبادلون الملاحظات ولا أدري من أين جاؤوا ولا إلى أين كانوا ذاهبين في هذه البكرة

(٥) رجل من عمال شركة النور كرف حين رأانا عن اطفاء الماييع وجاء ووقف مع الغلمان

ولم أحسب المارة الذين أبي لهم أدبهم - أو ذمهم أن يقفوا ويتفرجوا . وقد كان هؤلاء جميعاً يضحكون منا حتى القطتان ولا أمل القارى بوصف هذه الرحلة وما جرى فيها فليس لهذا آخر ، فقد كان كل كيلو فيها لا يخلو من حادثة ، وصار لي في هذه السكة الزراعية من الذكريات بمدد ما على جانبيها من الأشجار . ولما دوننا من البلدة قالت : « هل هذه هي ... »

قلت : « قربنا »

فلم يسمنى إلا أن أقرصها وأنا أصبح بها : « ياملونه »

\*\*\*

وأعود إلى الريف الذى نشدت في ظله الروح والراحة فأقول  
إن هذه الزروع التى تمتد إلى النهر والتى كانت تبدو لى في الظلام  
سوداء أنمشت روعى وبردت دماى التى كانت تنفل في عروقى  
ووهبتى السكينة والهدوء لأعصابى التى أثارها التيفظ والمنضب ،  
والروح لقلبى الذى أجهد حب عقيم ، ولكنه مع ذلك  
مضطرم . وقد كلتنى الأشجار الوارفة ، والمياه الجارية ، والهواء  
الندى ، والظلال اللديدة تحت الألفاف المشججئة . وقالت لى  
كلها أنى غطى في ثورنى وغضبى وأنى يجب أن أعرف وأدرك  
أنى لاشئ في حياة ذات الثوب الأرجوانى ، ولما كنت لاشئ  
فان من التطاول والغرور أن أحاول أن أحشر نفسى في حياتها ،  
وأن أزعمها بوجودى وأن أهيمن عليها وأسيطر . نعم أنا لاشئ .  
وليس لى عند ذات الثوب الأرجوانى شئ . . لا اجتلاجة  
واحدة من جفنها . ولا نبضة من عروقها . ولا خفقة مفردة من  
قلبها ، ولا خاطرأ مما يجول في رأسها أو يدور في نفسها . . ولا  
نفساً واحداً من هذه الآلاف والملايين من الألفاف التى يملو لها  
صدرها ويهبط . . حتى هنا الذى هو للهواء ليس لى منه شئ . !  
ونصبت يومين بين أحضان الطبيعة العريجة فكانت  
أشجارها ومياهها وأطيافها تמיד على مسمى هذا المعنى في كل  
ليلة وتكرره وإن اختلفت الأتنام وتمددت الأصوات ، وما  
كانت تמיד أو تسمى إلا ما كانت تسمى تحديثى به ، وقابى  
يخبرنى أنه الحق الذى كنت أحاول بالأمل أن أخفقه كل ليلة في  
ظلمة الليل على وسادى كأنه صوت « ديدمونه » إذ يميل على عنقها  
عليل يديه الكبيرتين التليظتين .

وعدت وقد وطنت نفسى على اليأس ، وخيل إلى أنها  
سكنت واطه أنت ، فجلست في شرفتى ملفوفاً في سواد الليل ،  
وفي قابى برد السكينة ، أنظر إلى النجوم المتلاعبة ، ولا أنظر إلى  
شرفتك وإذا بصوتك يهفو إلى منها . . . موتك إذ تتادين  
أخاك . . فذهبت سكينة نفسى ومزقتها الماصفة الكامنة في أعماق  
البحر ، وأحسست أن روعى كلها تهزها نبرات هذا الصوت  
المجيب . . . وخفت صوت الطبيعة التى فاجتني به في الريف  
في ظل الشجر وعلى سيف النهر . . . وكنت تميلين على حافة الشرفة

وترسلين الصوت مجاجلاً في سكون الليل ، وتهيئين بأخيك  
أن يرتد إليك قبل أن يذهب في شأنه ، فوددت لو أنف وأصبح  
به وأعينك على إسائه ورده ! ونهضت قملاً ، ولكنى وضعت  
يدى على فى ، وكنت ما كان يوشك أن ترتفع به عقيرى ثم  
أنحططت على قعدى وقد شاع في اليأس « علوا وسفلا » كما يقول  
النواسى - اليأس من الشقاء - والخطء على نفسى إذ ذهبت  
إلى الريف وحرمت نفسى مرآك يومين كاملين بلا جدوى .

كلا . . . لست ذلك « اللاشئ » الذى زعمتنى الطبيعة  
الساذجة ! . وليس صحيحاً أن أنفاسك كلها ذاهبة في الهواء كما  
تذهب أنفاس الناس . . ولا أن خفقات قلبك ليس لى منها  
نصيب . . ولقد غافلتك ومضيت إلى غرفة مظلمة واستمتت  
بمنظار مكبر ، فإذا عينك على شرفتى ، وإذا أنت تتلفنين ثم  
تحدثين لتتبينى ولتعرفى أباق أنا في الشرفة حيث كنت أم  
دخلت ؟ . وكنت قد غالطتك وبادمتك فأسندت شيئاً على  
الكرسى مكاني لتظلى متوهمة أنى هناك حين تنظرين ، ولأستطيع  
أن أعرف أين تنظرين حين تغفلين . . فزال الشك فقد طال  
تحديقك ثم كأنى رايك شئ من جود هذا القائم على الكرسى  
فجملت تتحولين إلى كل موضع في الشرفة وتنظرين ، ولبثت هكذا  
زمناً ثم دخلت ، فما كان منى إلا أن أسرعت وعدت إلى الكرسى  
فقدمت عليه مظمتنا كما كانت الحبشية التى وضعتها قاعدة ! إذن  
كانت لى تلك الوردة الحمراء التى نفضت عنها طامها وشممتها . .  
ولى هذه الإشارة إذ تظهرين على الشرفة فترقبين أناسك  
إلى خصل شمرك الرسل وتردينها عن أذنك . . ولى  
هذه الابتسامات الرضية حين يسرك من جيلسك أو جيلستك  
ما تسمين . . . وإذن لم يكن عقراً أن الفتاه التى زارتك عصر  
يوم كانت لا تنفك تدير وجهها وتنظر إلى ناحيتى كأنما تريد أن  
ترانى . ولقد عجبت يومئذ لكثرة تلفتها ونظرها إلى وظننت أن  
هذا من الفضول الألف ، ثم ترددت وشككت فقد رأيتك  
تتكلمين ورأيتها تلتفت ، فتخفين أنت وجهك حتى تردى وجهها  
إليك . وتكرر هذا مع زائرة أخرى جلست معك في الشرفة  
- وكنت أحسبها قديماً أختاً لك . وتروجة لشابه رأيتها فيها  
منك - وكان ظهرك إلى وجهها هى إليك وإلى ، وكان الكلام  
يدور بينكما ، ولكن عين الزائرة لم تكن إلا على أنا ، وأنا

مهزلة فانا أذوى نفسي ، وأمزق أعصابي ، وأحرق دمي ، وهي تغن أنى متبسط راض قانع يمرآها في هذه الأنواب المدينة التي لا تنفك تخلع منها واحداً وتلبس آخر ؟ . وما أكثر ما آليت لأسحقن هذا الحب ثم ما هو إلا أن أراها ناظرة إلى حتى يتحلل العزم وينقض ما كنت أبرمته منه . فالحق أن هذه مصيبة لم تكن لي في حساب ولا كان يحظر لي في بال أنها ستنصب يوماً على أم رأسي . . وانظر ماذا تصنع معي !! تبدولي في الأرجواني ، وتبقى فيه حتى أراها - أعني حتى توقن أني رأيتها فاني أراها كثيراً وهي لا تراني - فإذا وثقت دخلت وغيرته !! أليست هذه مكابدة متمعدة . . ؟

ابراهيم عبد القادر الملازلي

### لجنة التأليف والترجمة والنشر

## الشيخ الشيخة الكبرى العظيمة

تأليف رمزي ميور

استاذ التاريخ الحديث بجامعة مانشستر سابقاً

وترجمة الاستاذ محمد بربراه

ناظر مدرسة بنا فادن الابتدائية

كتاب قيم يبحث بحثاً علمياً منطقياً في القوى والموامل الخفية التي كانت تسيطر على أوروبا والعالم أجمع منذ أوائل هذا القرن والتي أدت إلى اشتعال نار الحرب العظمى وعينت شروط التسوية التي أعقبتها ، وهو يشرح ما في هذه التسوية من أغلاط ويتنبأ بالحوادث التي وقعت في العالم في المدة الأخيرة ونقصت شروط هذه التسوية ، وقد أضاف إليه الترجمة فصلاً في حوادث الست السنين الأخيرة في الصين والحبشة وألمانيا وبلاد البلقان والشرق الأدنى فهو لذلك كتاب لاغنى عنه للعالم والطالب والقارى العادي ، والكتاب يقع في نحو أربعمائة صفحة ، وقد طبع طبعا متقناً على ورق جميل مصقول ويطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ومن المكاتب الشهيرة ، وتمنه عشرة قروش عند أجرة البريد

أنتاعل عنكما ولكني أراكما ، وقديماً قلت أمي عنى إن لي عيناً في قدي . . وإذن ليس عفواً أن أهلك جميعاً مهنين بي وأنهم لا يزالون براعوني وينظرون بلى بل يراقبونني - لولا أني أكرم هذه اللفظة - حتى ليندولي أحياناً أنهم يصطفون في الشرفة ويمشون إليك وأنت في الحجره بأخباري وأنبأني لتمر في أباقي أنا أم خارج . كأنما يحجرون عليك ويعنونك أن تظهرى لي ، ولا يسمعون لك بالبروز إلا بعد أن يوقنوا أني خرجت وأن في الوسع انقاء شري . . كأنما في الأمر شر . . ويكبر هذا في وهى أحياناً حتى لا أترك البيت لغير سبب أو داع سوى أن أعفك من عنت أهلك ، وأطلق لك الحرية التي يقيدونها بسببي . . وإذا جاست في الشرفة تمتدت أن أحول عيني إلى ناحية أخرى وإن كان هذا حرماناً لي لاحقاً لهم فيه ، ولكني من أهلك أحتمله وفي سبيلك أصبر عليه . وليت من يدري بأى شيء لفت نظر أهلك الى حبي لك وأنا أتمشى كل إشارة ؟ بل أنا أجتنب أن أنظر إليك حين يكون معك أحد ولو كان طفلاً صغيراً . . فهل ترى حدثتهم أنت بما أحسست من ناحيتي ؟ ؟ ربما . . فان كنت قد فعلت فأنت طائشة ، فقد جعلت على نفسك منهم رقبا بلا موجب ، فما بيننا شيء سوى النظر « وهل ذلك نافع ؟ » كما يقول الشاعر القديم . . وقد حدثت نفسي أس أن أشتري ورداً أحمر ، فانك تحبينه على ما يظهر ، وأن أشير به إليك ، ولكني لم أنسل وقلت لنفسى : « ما الفائدة ؟ . . هبني أشرت وأشرت وهبها أجابت وأجابت ؟ ؟ أفنظل أنا أشير إليها من بعيد ، وهى تجاوبني من بعيد ؟ ؟ ثم لاني غير ذلك . . عرفنا أنا محبان ثم ماذا بعد هذا ؟ ؟ هي تظهر في الشرفة ، وأنا أنظر إليها من الشرفة . . هي في السماء نجم لامع ، وأنا فوق الأرض عين يرفعها اليه قلب واجف ! ! كلا ! لا ورد ولا شبهه ! . ما الفائدة ؟ . ما الفائدة ؟ . إلى أراى أرجع القهقري قروناً . . بل أنا لا أرجع ولا أتقدم . . وإنما أرى الحياة تركد وتأسن من حولي لأن ذات الثوب الأرجواني شادت أن تكون قطعة من أمات بيت ففى فيه لتكون زينة له لا لتجيا وتتم بالحياة . . وأنا ترى هذا الخاطر قفضت وسخطت وأحسست أن نفسى امتلأت صمارة حتى لو وجدت ظمعا على لسانى . . . سخطت على نفسى لأنى خيل إلى أنى إنما أحب فتاة ساذجة يسرها أن تكون محبوبة وتقع من الحب بأن تنظر إلى الرجل وترى الرجل ينظر إليها . . . وغضبت لأنى رأيت أن هذه